سرادقات الزيني بركات

(قراءة في العتبات النصيّة)

أبو بكر مرزوق

جامعة الأغواط

السرادقات: إنّه الوسم الذي اعتمله الروائي المصري (جمال الغيطاني) فصولا لروايته (الزيني بركات)، وهو وسم – كما يبدو - متميّز في السرديات العربية، حتى إنّه ليعتقد أنه لم يأت جزافا، وإنّما أورده، ليقضي به حاجة استلهمها من قراءاته التراثية.

بيد أنّ مقاربتنا لهذه العتبة النصية المتميّزة في متن (الزيني)، لا تحملنا بالضرورة إلى استكناه هذه العنونة، كما اعتقدها صاحبها، بقدر ما تمنحنا هامشا رحبا، نتقوّل من خلاله ما لم يقله (الغيطاني)، على الوجه الذي تسمح به القراءة، دون شطط أو تمحّل.

تبنّى الغيطاني معجمية "سرادق" لفصول روايته (الزيني بركات[1])، وهو وسم مميز لا نكاد نجد له نظيرا عند المحدثين، بل وعند القدماء أيضا، كما لم نتعوّده ضمن أبجديات التصنيف والتأليف، أو الأعمال الإبداعية.

غير أن تشاكلها (الصوتي) ودلالته يوحي بأنّ هذا الاصطلاح الطريف لم يوظف هذا التوظيف القصدي إلا ليدلّ على ما تدلّ عليه تلك المصطلحات الحديثة المعتمدة في تبويب المصنفات والكتب، كمصطلح " **باب**" الذي يدّل على الانفتاح على موضوع مستوفي العناصـــر، يدرس دراسة منهجية، أو مصطلح "**فصل**" الذي يدلّ على فصل قضية عن قضايا، تجمع بينها وحدة عضوية ومحاولة تفصيلها والفصل فيها، أو مصطلح " **مبحث**" الذي يـــدلّ على البحث والتنقيب عن فكرة، ومحاولة الوصول إلى دقائقها.

فالسرادق – كما يشرحه المعجم – وسم لكل ما يُضْرَبُ حول الشيء من حجاب أو حاجز، في نية عزله وإفراده، أو التكتّم عنه وستره. وبإسقاط هذه الدلالة اللغوية على الدلالة الواردة في الرواية، نكون أمام (سرادق)، أي (فصل) يحتضن أحداث البِصَاصَة والعمل الاستخباري والتجسّس، كما يرسم صورة لأطماع الملك وأغراضه، ومؤامرات الحكم ودسائسه، إلى جانب التأريخ للتفاعلات السياسية والتحولات العسكرية التي شهدتها مصر زمن المماليك[2]، حيث تمثّل فيها السرادقات فواصلَ مستقلةً جزئيا، تمنع أن يختلط السرادق بالذي قبلها والذي بعدها، مع مراعاة تلك اللحمة العضوية التي تجمع وحدة البناء الفني للرواية. هذا الذي يستقيم مع ما سنذهب إليه، إذا ما تابعنا هذا (الدال) متابعة معجمية، ووفق سياقيه التداولي والدلالي.

السرادقات والدلالة المعجمية :

السرادق: لفظ فارسي معرّب، إذ ليس في كلام العرب اسم مفرد، ثالثه ألف بعدها حرفان[3]. والسرادق، من حيث الدلالة اللغوية، هو كلّ حائل يحُول بين الشيء ورؤيته، أو إدراكه، ويكون هذا الحائل ماديا مصطنعا (سورا، أو جدارا من أحجار أو أعواد، أو نسجا من صوف أو شعر أو وبر..) أو مانعا طبيعيا (جبل أو ربوة أو ماء أو نار..). وقد يكون الحائل معنويا (وازعا دينيا أو عرفا اجتماعيا أو مانعا نفسيا..).

لقد ارتبطت دلالة (السرادق)، وفي مرحلة من مراحل تطورها، بأبجديات البناء والعمارة، فهو – كما سلف القيل – كلّ ما يلتفّ حول المكان أو فوقه من حواجز مانعة، تكون سترا له أو ظلا.

وحين الرجوع إلى معاجم العربية، نجد صاحب اللسان يعرّف (السرادقات) بأنّها "كلّ ما أحاط بالبناء، من حائط أو مضرب أو خباء"[4]. ويعرفها صاحب الصحاح بقوله: "السرادقات هي التي تمتدّ فوق صحن الدار، وكلّ بيت من كرسف [قطن] هو سرادق"[5]. وهي عند صاحب المصباح المنير "الفسطاط"[6]، وهو البيت من الشعر أو القماش..

وفي الاستعمال الحديث، يكون السرادق كلّ مكان يتخذ قصدا، للاحتفال أو التأبين، وهذا المعنى هو نفسه الذي نجده في السير الشعبية العربية، حين نسمعهم يقولون: "ضربوا الخيام والسرادقات"، أو ما تعتمده بعض المجتمعات في تقاليدها الاجتماعية، إذ لا تزال عادة نصب السرادقات للاحتفال والتأبين في المجتمع المصري – مثلا – سارية كمظهر من المظاهر الاجتماعية الراسخة، تعرف عندهم بـــ (الصيوان)، وهو لفظ فارسي أيضا، ومعناه الخيمة الكبيرة من القماش.

ومن معاني (السرادق) الغبار الساطع، وفي معناه، يقول لبيد، وهو يصف قطيعا من البقر الوحشي:

رفعنا **سُرادقاً** في يوم ريحٍ يصفَّقُ بينَ ميْل واعتدالِ [7]

وقد تعني – أيضا – الدخان الشاخص المحيط بالشيء[8]، وهو المدلول الذي استعمله القرآن الكريم، حيث وردت لفظة (سرادق) في النص القرآني مرة واحدة، في قوله تعالى: ((إنّا اعْتَدْنَا للظَالِمِينَ نَارًا، أَحَاطَ بِهِمْ سُرادِقُهَا، وإنْ يَسْتَغِيثُوا، يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ، يَشْوِي الوُجُوهَ))[9]، وقد فسرها صاحب الكشّاف بقوله: "شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحُجرة التي تكون حول الفسطاط.. وقيل: دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، وقيل: حائط من النار يطيف بهم"[10] .

إنّ الذي نستخلصه من هذه التعاريف المعجمية مجتمعة، كون السرادق حيزا مكانيا ينضاف إلى حيز الخيمة، أو البيت، يأتي حائلا أو سقفا يفي بأغراض ساكنته، فهو امتداد للبيت وصحن للدار، بحيث يكون حرمة لأهله، يضمّ أغراضهم وحوائجهم: من أسقية، وقدور، وحطب، وآلات طبخ..، كما يحوي كريم دوابهم وأنعامهم.. يمنع عنهم الحرّ والقرّ، والريح والمطر، واقتحام الحيوان الضال، كما يقف سترا دون ساكنته، يحول بينهم وبين أعين الناس..

ثم يتطوّر (السرادق) في دلالته، فيطلق على الفسطاط، ليحمل، إلى جانب الوظيفة النفعية، الوظيفة الجمالية، ومعه سوف يكتسب بعدا قيميا (اجتماعيا، ثقافيا)، به يتمايز

الناس، بحسب وضعهم الاقتصادي والاجتماعي: (علية القوم وأشرافهم، أواسط القوم، عامة الناس..)

ومن هذه الخلفية المعجمية، نلفي (السرادق) أحد العناصر المادية المتناغمة مع شكل البناء العربي الأول – عند القبائل العربية – ذلك أنّ الموقع الذي تأخذه القبيلة لنفسها، والنسيج العمراني الذي يميّزها عن غيرها، سيمثّل أُولى أشكال الانحسار نحو (الداخل) والانغلاق عن (الخارج) .. إنّه امتثال لفكرة العصبية التي تجعل الفرد (كلاًّ) يتماهى في نسق القبيلة. ثم يأتي (السرادق)، ليمثّل مظهرا عمرانيا يكرّس، بدوره، هذا الشعور المنكفئ، مشكلا، بالنسبة إلى البيت (الخيمة) عاملا آخر منغلقا على نفسه، لتكتمل معه صورة الانغلاق داخل المنغلق.

وإذا كان شعور الفردية حاصلا في الكلّ، فإنّه لا يعني بالضرورة ذوبان الكلّ في الجزء، إذ لا يزال الفرد منكفئا على نفسه، محافظا على خصوصيته، مستقلا بذاته، وستكون (السرادقات) هنا، أولى صور هذه الخصوصية، مما يحملنا إلى الاعتقاد بأن هناك التفافا حول الذات، تعمل السرادقات على حجبه، والتكتّم عليه.

قد يسمح لنا المقام – هنا – أن نسأل عن دواعي هذا الالتفاف، ولا نعدم جوابا سريعا. إنّ الإنسان، على الرغم من انفتاحه على الآخر، سيظل متمسكا بخصوصيته، دون أن يذوب فيه، أو يهيمن عليه، فيحتويه – والذوبان في هذا المقام مشروع – كما إنّ البحوث النفسية لتجد أجوبة (موضوعية) لذلك. حيث إنّ هذا العالم المصغّر، المتقوقع الذي اصطنعه الإنسان ليسكنَ إليه، قد يتحوّل إلى سجن لا يستطيع منه فكاكا، وسيغدو هذا الكون الصغير صورة للكبت والقمع واليأس والانهزامية. وبقدر ما يصوغ الإنسان المكان، سيكون الإنسان، هو أيضا، من صياغات مكانه، وأول المتأثرين به.

السرادقات، والانزياح اللغوي:

إنّ نظرة متفحصة للفظة (سرادق) في تراثنا الشعري، تكشف لنا عن خضوع دلالتها اللغوية إلى تواطؤ اجتماعي صريح، انزاحت بموجبه، من دلالة (الوسيلة) إلى دلالة

(القيمة). لقد استحالت لفظة (سرادق) علامة على سلطة الملك وأبّهة الصولجـــان، وفكرة العزة والمجد، بل قد تمتدّ في (لا- الوعي الاجتماعي) فتصبح موضوعة للملك والسلطان؛ إذْ جاء في علم التأويل: "من رأى سرادقا مضروبا، فإنّ ذلك سلطان وملك، لأن السرادق للملوك"[11].

لقد وُظف السرادق (تيمة) للمُلْكِ وَالسُلْطَانِ، والهيبة والمكنة، والعِزِّ والمجد، والتباهي والمفاخرة، وإنّنا لواجدون، من خلال هذه الشواهد الشعرية، صورة هذا الانزياح الذي ألمحنا إليه.

قال **لبيد**:

ودافعتُ عنك السيدَ مِنْ آل دارمٍ ومنهم قبيلٌ في **السرادقِ** فاخـــرُ[12]

وقال **جرير**:

وما وجَد الملوكُ أعـــــزَّ منا وأسرعَ من فوارسنا استِـــلابا

وذو تاجٍ له خَرَزَاتُ مُـــلْكٍ سلبْناه **السرادقَ** والحِجـــابا[13]

وقال **جرير**، أيضا :

كذب الأُخيطِلُ، إنّ قوميَ فيهمُ تاجُ الملوك ورايةُ النعمـــــانِ

إنّي لَيعرفُ في **السرادق** مترلي عند الملوك وعند كلِّ رهـــانِ[14]

السرادقات، والنحت اللغوي:

إنّ للألفاظ أصلا، تنتظم عليه الفروع عند عملية الاشتقاق، حيث إنّ التصاريف المختلفة والمتشعّبة عن المادة الأصلية – اللفظة التي اشتق منها – لَتَدُلُّ على معنى جامع مشترك بينها، هو معنى اللفظ الأصلي، الذي لا تكاد تخرج عنه. وهذه الظاهرة، نلمسها واضحة في اللغة العربية، التي حافظت أغلب المشتقات فيها عن نسبها الأول .

فلو أخذنا مادة (**عرف**)، ونظرنا إلى بعض مشتقاتها التي تذكرها المعاجم العربية[15]، مثل: المعرفة، والاعتـــراف، والمعروف، والعُرْفِ، والعَرْفِ، نجد أنها تجتمع جميعها على معنى واحد، هو الانكشاف والظهور. ولعلّ الجدول الآتي يوضح ذلك:

الكلمة	معناها
المعرفة	الكشف عن شيء كان مجهولا
الاعتراف	الكشف عن النية، وأظهرها
المعروف	الكشف عن سلوك اجتماعي أخلاقي معروف
العُرف	السلوك الذي كشفت عنه الجماعة الواحدة
العَرف	العطر الذكي الذي كشف عن نفسه عن بعد

إنّ هذا الانتظام الدلالي بين اللفظة الأصل، والألفاظ الفرعية (المشتقات) ييسّر على المشتغلين باللغة والمعجم أن يميزوا بين الأصيل والدخيل، وعلى أساس هذا المذهب، ننظر إلى لفظة (سرادق)، حيث نجدها من الألفاظ الدخيلة، إذ ليس في كلام العرب، كما أشـــار الأصفهاني [ت. 501 هـــ] في مفرداته[16]، اسم مفرد ثالثه ألف بعدها حرفان. إنّ لفظ (السرادق) معرّب، أصله، في الفارسية، (سرادار) أي (دهليز الدار)، على الرغم من محاولة بعض اللغويين التنقيب عن أصل عربي له، منكرين تعريبه، لنزول القرآن به[17].

لقد درج متكلمو العربية على توليد الألفاظ، لتجديد الدلالات، معتمدين الاشتقاق في صوره الثلاث الشائعة (الأصغر، والكبير، والأكبر)[18]، ثم عمدوا إلى اشتقاق رابع، حين دعت الحاجة إلى ذلك، فكان (الاشتقاق الكبّار)، وهو اشتقاق يقوم على النحت، أي صناعة كلمـــة من كلمتين، أو أكثر، واختزال الحرف المشترك فيها على سبيل الاقتصار أو الإيجاز، وهو مذهب قليل في الفصحى، شائع في العامية [19]، كاشتقاق (بركل) أي مشى بمشقة في بركة الماء والطين، مـــن الفعلين: (برك) و(ركل)، ومثلها: اشتقاق (هرمس) أي جمع الشيء، بمرسه بعد هرسه، من الفعلين: (هرس) و(مرس)، أو اللجوء إلى النحت في أبسط صوره، بجمع كلمتين، للحصول على كلمة واحدة، مما شاع عند اللغويين المعاصرين، مواكبة لتطور ألفاظ العصر، كنحتهم لفظة (برمائي) للحيوان الذي يعيش في الـــبرّ والماء، أو مسايرة نحت في لغة أجنبية، كلفظ (القرسطية) للتعبير عن القرون الوسطى.

وبالرجوع إلى لفظة (سرادق)، واعتمال هذه الآليّة، نجد أنّ (السرادق) في بنيتها الدلالية تحيل إلى المعنى الأول الذي من أجله جاءت في الأصل الفارسي، وهو (السرادق/ الدهليز)، ثم تحيل إلى السياق الذي استعملت فيه، بعدما عرّبت [20]، حيث دلت على ما يحيط بالخيمـــة من وِجَاء، أو ما يضرب على صحن بيت من غطاء، أو ما قام مقام الفسطاط. ثم ذهبوا به مذهبا مجازيا، فدلّ عندهم على موضوعة السلطان، كالعز والمجد والمكانة الشريفة.

وإذا كانت الضرورة التواصلية والتداولية للغة، قد حملت مستعملي اللغة على سلوك هذا المسلك في الاشتقاق، فإنّ هناك محملا دلاليا، هو من صميم (الشعرية اللغوية)، يدفعهم إلى اصطناع معنىً للألفاظ، يتجاوز اعتباطية الاستعمال اللغوي، حيث يحتكم إلى تأويل جمـــالي، يقتضيه سياق الاستعمال مرة، ونسق الملفوظ مرة أخرى.

لقد استعملت (السرادقات) في متن الزيني، لتؤدي وظيفة تقنية (منهجية)، فتقابل أبواب الكتاب أو فصوله، هذا هو السياق الذي جاءت من أجله، كـــ (مُنَاص خارجي) في المتن. غير أننا، إذا جاوزنا هذه الوظيفة، ونظرنا إلى السرادقات، بوصفها (نسقا)، نجد تناسبا لطيفا بين البنية الدلالية للفظة، والمضمون الذي أوجدها. سنستحضر من السرادق فعله (جذره) المعرّب، وهو (سَرْدَقَ)، فبإسقاط آلية (النحت اللغوي) عليها، أمكننا أن نزعم أن لفظ (سَرْدَقَ) قام على مقطعين هما: (سَرَّ)، و(دَقَّ)، وبتحريف بسيط للمعنى، نحصل على لفظين صحيحين في حيث الدلالة، جاء الأول من (السرّ)، والثاني من (الدقّة)، وبتركيب لغوي آخر لهما، تتشكّل لدينا عبارة (سرٌ دقيقٌ)، ومعها، تصبح لفظة (سردق)، في دلالتها الخطية، والصوتية، والتركيبية، والدلالية (سِرٌ دَقّ)، فأين معنى السريّة الدقيقة في المتن؟

إنّ (الموضوعة الكبرى) في متن الزيني، تدور حول (فكرة الصراع على الملك)، أي الصراع (الداخلي) لأمـــراء المماليك على العرش من جهة، وصراعـــهم (الخارجي) مع العثمانيين، على أرض مصر، من جهة أخرى، ثم تأتي (الموضوعة الصغرى)، من خلال (فكرة الجوسسة)، حيث يمثّـــل جهاز " **البصّاصة**"، وعمل "**الحِسبة**"[21]مساحة عريضة في

أحداث المتن ؛ عندها ندرك، ونحن نبحث عن دلالة اللفظة المنحوتة (السرّ الدقيق)، المدى الذي يتطلبه الحفاظ على ملك مصر، من سريّة الفعل ودقّة التصرف، أو ما يحيط بالملك من دسائس ومؤامرات، وتخطيط خفي للانقلابات، أو تفعيل حثيث للإشاعات، وهي تُحَرَّك في الخفاء، وغير ذلك من حيل السياسة والحكم .

تأتي (فكرة البصاصة) التي حضرت عبر مراحل الفعل السردي، في (الزيني بركات)، بل لقد أفرد لها السارد حيزا مستقلا في المتن[22]، سرادقا بأكمله (السرادق الخامس)، حيث كان ملفوظها مطابقا لملفوظات الوثيقة الاستخبارية السرية، بحقله الدلالي، فناسبت اللفظة المنحوتة فكـــرة البصاصة، بما يحيط بهذه الوظيفة (الجهاز) من تكتّم دقيق، وحذر شديد، وما تتطلّبه مـــن إحاطة بالأمور، وإلمام بالمستور .

ثم تأتي لفظة (**السرادقات**) التي تصدرت فصول الرواية، لتقع موقعا حسنا في المتن مرّة أخرى، حين تضطلع بحفظ ما يقع فيها من أحداث، والحرص على احتوائه، إلا خيطا دقيقا، هو الحبل الصرّي الذي يغذي السرادقات جميعا، فيحفظ نسقها العام، وبنيتها الكلية.

نسيجية خارج السرادق:

أ) يقوم المبنى الحكائي في رواية (**جمال الغيطاني**) على مُناصِ (**السرادق**)، يتقاطع مع مُناصِ (**المقتطف**) في عضوية دقيقة النسج. حيث إنّ عدد السرادقات الواردة في متن (**الزيني بركات**) سبعة، وهي متفاوتة في أحجامها، وعدد صفحاتها، يتضح لنا ذلك من خلال الجدول الآتي:

السرادقات	**عدد الصفحات**
السرادق الأول	26 .صفحة
السرادق الثاني	28 .صفحة
السرادق الثالث	27 .صفحة
السرادق الرابع	17.صفحة

السرادق الخامس	01 . بعض سطر
السرادق السادس	24 .صفحة
السرادق السابع	03 .صفحة

ب) عدد المقتطفات في (**الزيني بركات**) خمسة، تتوزّع في المتن بكيفية متميزة:

- **تتقدم** السرادق مباشرة (السرادق الأول)
- **تتوسط** السرادق (السرادق الثالث)
- **تختم** بها السرادقات (السرادق السابع)
- قد **تتكرر** في السرادق الواحد (وردت مرتين في السرادق الرابع)

جـــ) قد ورد (مناص) ثالث في نهاية المتن، وضعه الكاتب تحت اسم (**خارج السرادقات)** يقوم مقامَ المقتطف، ويتقاطع تقاطعا منطقيا مع المقتطف الأول الذي انفتحت الرواية به، ولعلّ الجدول الآتي يكشف لنا هذه الهندسة الدقيقة.

بناء الحدث	**نوع المناص**	**الصفحات**	عرض الأحداث
بداية الحدث	المقتطف الأول	05.صفحة	أجواء القاهرة قبل الهزيمة.
تطور الحدث	السرادقات السبعة	126.صفحة	الأحداث التي تخللت البداية. (قبيل الهزيمة) والنهاية. (بعد الهزيمة).
نهاية الحدث	خارج السرادقات	02.صفحة	الهزيمة، وما بعدها

ولفهم تقنية العرض في متن (الزيني)[23]، ومتابعتها من خلال هذه المناصات الثلاثة (**المقتطف، السرادقات، خارج السرادقات**)، لا بد لنا من عود على بدء، حتى ندرك بعض مقاصدها:

- إنّ (**المقتطف** " أ ") الذي استُهِلّ به المتن، هو (**استباق زمني**) لنهاية الحدث في الرواية، بل، إنّه هو نفسه نهاية الحدث.

- إنّ (**السرادقات**) أي فصول الرواية، هي عرض لها بطريقة (**الارتداد الزمني**)، أي ما حدث قبل نقطة البدء.
- إنّ (**خارج السرادقات**)، وهي نهاية الرواية، (**عودة إلى نقطة البدء**)، ثم (**تجاوز**) إلى الهزيمة، وما بعدها.

لقد مثل (**المقتطف الأول**) في حياة مـــتن (**الزيني**) أنموذجا لإستراتيجية البدايات في الأعمال السردية، وتكمن أهميتها الأولى في فهم الآليات المؤسسة للنص، وتحقيق مظاهر انفتاحه. إنّها تشكّل إستراتيجية وجيهة، تقود الدلالة من التكثيف والغموض إلى حقول الكشف وتوسعة المعنى. وإذا كانت البداية من أعقد أجزاء العمل، بوصفها الواجهةَ الثقافية التي تقرب القارئ من النص، فإنّ لها، من جهة أخرى، وظيفة الإسهام في بلورة الوعي النقدي، بإقرار أن المدخل اللغوي في عملية التواصل القرائي، ليس عتبة لغوية فقط، بقدر ما هو مدخل ثقافي عام[24].

لقد انفتحت (**السرادقات**) على مدخل (**المقتطف الأول**)، الذي شكّل فيها "بوابة الهزيمة"، وستكشف حقيقة الأحداث الواقعة في عالمها الخفيّ، بحيث تأسّس لجملة العلامات التي سنهتدي بهديها قبل أن نتسوَّرَ (السرادقات) ؛ فتفضح أسرارها، وتحدّث بأخبارها: (اضطراب القاهرة، اختفاء الزيني بركات، دلائل حرب وشيكة بين السلطان المملوكي "**قانصوه الغوري**" والسلطان العثماني "**سليم الأول**").

ثم إنّ تقسيم النص إلى (**سرادقات**) يجعلنا أمام نص (**مغلق**)، محدد المعالم، مقدر الخطوات، في حين، نجد أنفسنا، ونحن خارجه (**ما قبل السرادقات وما بعدها**) مع نص (**منفتح**) متعدّد القراءات.

كما أنّ الخطاب الأول (**المقتطف**)، يتصل برؤيـــة الرحالة الإيطالي " **فياسكونتي جانتي**" الشاهد/ الراوي للأحداث، الذي يمثّل في النص (**الما – قبل**)، أو هو العتبة النصية الأولى – حسب تعبير **جيرار جانت – Gérard Genette** – في هذه (**السرادقات**)، ثم يأتي (**الما – بعد**)، تحت عنوان دقيق هو (**خارج السرادقات**)، وكأنّه

إجاباتٌ حاضرة، ونتائجُ حاسمة منطقية لما أثير في (الما – قبل)، حيث يعرض الرحالة (الراوي/ الشاهد)، ما رآه عند زيارته الأخيرة، بوصفها شهادةً على عهد مملوكي (**انقرض**)، وزمن عثماني قد (**فرض**) ؛ وها هـــو (**المنادي**)، يعلن عن تعيين (الزيني بركات) **محتسبا** جديدا، لعهد جديد، ويعلن عن حلول العملة العثمانية محلّ العملة المملوكية.

لقد استهلّ السارد مُناصه الخارجي (**المقتطف الأول**) بجملة عميقة الدلالة "لكـــل أول آخر، ولكلّ بداية نهاية"[25]، إذ كلّ شيء يقوم على توالد البدايات والنهايات، فكـــلّ بداية، كانت في الأصل نهاية، وقد كانت النهاية من قبل بداية، ومع صيرورة الأشيـــاء وسيرورتها، يأخذ المتن الحكائي "شكل الدورة، أو شكل العَوْد على البدء، أو شكل علامة الاستلزام في المنطق الرياضي"[26]

وحين نؤرخ للفترة التي يتعرض إليها المقتطف الأول (**الما – قبل**)، نجد وقائعها قد حدثت خلال شهر (رجب من سنة 922 هـــ) الموافق لـــ (أغسطس من سنة 1517 م)، وإذْ ننظر إلى المقتطف الأخير (**الما – بعد**)، نجد وقائعها قد أرّخ لها بسنة (923 هـــ) فحسب. سنشير إلى جزئية دقيقـــة، ربما أسهمت في إيهام القارئ من خلال ربط الحوادث بالتواريخ. إذْ علينا – بدايةً – إبعاد فكرة الجدل القائم حول رواية (الزيني بركات)، كونها رواية تاريخية، قد أسهم فيها المتخيّـــل السردي إسهاما فاعلا، أو كونها مشروع رواية تاريخية، جمعت مادتها بدقة[27]، ورتبت عناصرها ببراعة، بحيث مكّنت القارئ من قراءتها على أساس أنها أثر سردي خالص.

فلا يكاد القارئ يدرك تكرار البدايـــة في النهاية، ذلك أنّ البداية عنده، هي أحوال القاهرة المضطربة التي تخفي أمرا خطيرا. والنهاية عنده، هي نهايةٌ تحبس الأنفاس على أجواء جديدة هيمن فيه العثمانيون، ومستجدات حدثية تساير السياق التاريخي (تعيين الزيني، وتغيير العملة). ولقد أسهم التأريخ للمرحلتين، في إذكاء هذا الإيهام، وتثبيت الفارق الزمني، بين البداية: (رجب 922 هـــ/ أغسطس [أوت] 1517م)، والنهاية: (923

هـ[28])، أي أنّ بين (922 و 923) فارق عـــــام كامل – وهذا موطن الإيهام – ولكن، وباستقراء الأشهر، ندرك أنها بضعة شهور فحسب، ومعها، تكشف رواية (الزيني بركات) عن معمارية دقيقة، من خلال لعبة زمنٍ، وإيهام فني، تكثّفَ فيها الزمن الفني وامتدّ على حساب الزمن التاريخي المُوهمِ بالامتداد، فلم يَعْدُ أن كان بضعة أشهر.

خلاصة:

لقد جاءت عتبة (**السرادقات**) اصطلاحا فريدا لأبواب المتن، كشفت عن مضمونه، وقد تُتُبِّع هذا الوسم متابعة لغوية، بوصفه تشكيلا لسانيا (فارسيا معرّبا) له استعماله المعجمي العام، (كلّ ما يقف حائلا بـــين الشيء ورؤيته) واستعماله الخاص المحقّق لوظيفة معيّنة في البناء والعمارة (جدار، خباء، فسطاط..) ومن خلال هذه (التيمة)، انزاح ملفوظ (سرادق) إلى تواطؤات تواضعت عليـــها الجماعة المستعملة له، (ضمن مدونة العرب الشعرية)، لم تخرج عن معنى هيبة الجانب، وعزّة السلطان، ومكنة الحكم .

وإذا كان ملفوظ (سرادق) دخيلا في العربية (مع وروده في القرآن الكريم)، إلا أنّه أمسى قابلا للتدجين، بعدما أخضع إلى عملية (الاشتقاق)، بحيث يمكن إيجاد قربى بين دلالة الاستعمال الأولى (الفارسية) وموضوعة (الزيني) الصغرى (عمل جهاز البصاصة المخابراتي) الذي يستدعي السريّة والتكتّم، وبين موضوعته الكبرى، القائمة على الصراع السياسي الداخلي (بين الأمراء المماليك)، والصراع العسكري الخارجي (بين المماليك والعثمانيين) والتي تستدعي، بدورها، دقة التصرّف، والحيطة عند الفعل، بعدما ألفينا أصل الكلمة، في الفارسية، (سردار) أي دهليز الدار، ثم يأتي الاستعمال العربي له (سرادق) لتدلّ على ما يُخفى ويُستر، حيث تطفو ملفوظات السرية والاستتار، والحركة الدقيقة الحذرة، وهذا أنسب إلى تيمة البصاصة (الجهاز المخابراتي القمعي) الذي قام عليه متن.

و لم تكن مناصات الزيني الداخلية (السرادقات/ المقتطفات) عفوية الحضور، بل، قد شكّلت بناء حدثيا دقيقا مثّلت فيه العناوين الكبرى (السرادقات) المراحل الحدثية العامة لمتن (الزيني)، ثم تأتي المناصات الصغرى (المقتطفات) لتمثل معالم الحدث الخارجية في بنيته

السطحية، فتؤسس لبداية الأحداث ونهايتها، مشكلة محيطا حدثيا لها، ذلك الذي اضطلعت به (السرادقات) في متن (الزيني بركات).

الهوامش:

[1] اعتمد في هذه الدراسة إصدار دار الشروق (بيروت)، ط.2، 1994.

[2] تتناول الرواية فترة حكم المماليك البرجية (1382-1517) لمصر، في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، على أنقاض المماليك البحرية (1250-1382)، وقد أرّخت الرواية لعهد السلطان (قانصوه الغوري، ومحتسب فترته (الزيني بركات).

[3] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح. محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ط. 1، 1998، ص.236.

[4] لسان العرب، ابن منظور، مادة (سردق).

[5] الصحاح، الجوهري، مادة (سردق) .

[6] المصباح المنير، الفيّومي، مادة (سردق).

[7] لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، دار صادر، بيروت، [د.ت.ط] ص.108.

[8] لسان العرب، مادة (سردق).

[9] الكهف / 29.

[10] الكشاف (عن حقائق التنزيل، وعيون التأويل)، الزمخشري، تح. محمد الصادق القمحاوي، شركة مصطفى البابي، مصر، 1972، 482/2.

[11] منتخب الكلام في تفسير الأحلام، ابن سيرين، دار المعرفة، بيروت، ط.4، 2000، ص.181.

[12] الديوان، ص.63.

[13] ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص.60

[14] الديوان، ص.471.

[15] لسان العرب مادة (عرف)

[16] المفردات، مرجع سابق، ص.236.

[17] دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط.13، 1997، ص.178

[18] ينظر كتاب: الخصائص، ابن جني، في باب الاشتقاق الأكبر (88/2)، وباب تصاقب الألفاظ (95/2).

[19] ينظر كتاب: الفلسفة اللغوية، جرجي زيدان، فصل النحت.

[20] نذكّر بأنّ لفظة (سرادق) وردت مرة واحدة في القرآن: (الكهف/ 29)، وبدخولها القاموس القرآني، عوملت معاملة اللفظ العربي.

[21] الحِسبة: مظهر من مظاهر حفظ النظام العام داخل المدن، عرّفها الإمام الماوردي [ت.450هـ] في كتابه (لأحكام السلطانية) بقوله: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وأركانها خمسة: المحتسب (القائم على الحسبة)، والمحتسب عليه (التارك للمعروف، الفاعل للمنكر)، والمحتسب فيه (فعل المنكر، وترك فعل المعروف)، والاحتساب (فعل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، ومن وظائف المحتسب: مراقبة آداب العبادات (مثل: المحافظة على حرمة رمضان)، ومراقبة الآداب العامة، والأسعار، والنظافة العامة، ومراقبة مظاهر البناء المتسق مع طابع العمران في المدينة. ومن شروط دفع المنكر مع المحتسب: أن يكون المنكر ظاهرا، مطلعا عليه، دون تجسّس (بصاصة)، ويراعى في ذلك شكوى الناس عادة. وفكرة (الحِسبة) موضوعة مركزية في رواية (الغيطاني)، مثّلها (الزيني بركات)، حيث يظهر متعسفا في تطبيقها.

[22] تنظر الرواية.

[23] ينظر: انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، ط.2، 2000، ص.61.

[24] شعيب حليفي، هويّة العلامات في العتبات النصيّة وبناء التاويل

http: // www. Alwatan.com / graphics / 2005 / 03 mar/

[25] الزيني/ 5.

[26] وظيفة اللغة في الخطاب الروائي عند نجيب محفوظ، عثمان بدري، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر، 97/96، ص.20.

[27] استمدّ الغيطاني مادته الروائيه من كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) للمؤرخ أحمد بن إياس (ت.930هـ)، الذي عاصر أحداثها، وشهد سقوط الدولة المملوكية في يد العثمانيين.

[28] وقع خطأ مطبعي في النسخة المعتمدة، حيث يُظهِر المتن تاريخ (913 هـ).